سي إس لويس و «عرض زمني لنارنيا»:

فقد وفنتازيا وتبشير ديني وإعجاب بكل ما هو «شمالي» في وجه الجنوب المسلم البربري!

ابراهيم درويش*

■ «عرض زمني لنارنيا» (ذا كرونيكلز اوف نارنيا)، الفيلم الذي تغلب على فيلم «هاري بوتر» في افلام الموسم الامريكي العام الماضي، هو فانتازيا قامت على فانتازيا كتبها الاكاديمي والبريطاني كلايف ستيبل لويس (سي اس لويس 1898 ـ 1963) «الاسد، الساحرة والخزانة» وهو الفيلم الذي اخرجه اندرو ادامسون. الفيلم/ الرواية يوثق لمغامرات اربعة اطفال هم بيتر، سوزان، ادموند ولوسي، يقومون في ظل الحرب العالمية الثانية باكتشاف عالم فانتازي عبر خزانة في بيت ريفي، عالم نارنيا تسيطر عليه ساحرة بيضاء قاسية، عالم يطول فيه الشتاء كل العام ولكن بلا اعياد ميلاد.

ويبدو الشتاء الابيض الطويل بمثابة اللعنة، فبدون مساعدة الحيوانات الناطقة خاصة الاسد الضخم «اصلان» تتم هزيمة الساحرة القاسية ويعود الربيع للمملكة السحرية. المغامرة السحرية التي صنعتها هذه المرة بالصورة ديزني يمكن قراءتها بناء على انها اكثر من مستوى خاصة شخصية «اصلان» التي تحمل في الكثير من ملامحها صورة عن فكرة الفداء في المسيحية، فانبعاث الاسد يشير الى موت السيد المسيح عليه السلام وانبعاثه، الذي يضحي بنفسه للتكفير عن آثام الانسانية. وفي حالة نارنيا، ادموند الذي خان أخوته بسبب المنافسة للحصول على وعد من الساحرة البيضاء على الحلوى التركية.

الفيلم مخلص جدا للنص والحيوانات التي تمت معالجتها بالكمبيوتر وتتحدث لغة انكليزية ريفية قريبة من الفضاء الذي عاشه لويس نفسه، وربما كانت المعالجة التي قدمها الفيلم لموت وانبعاث اصلان فيها مبالغة كبيرة مع ان لويس معروف في كتاباته الاعتذارية عن المسيحية، فتقدم اصلان/ الاسد نحو حتفه في المشهد الذي اعد له عند الطاولة الحجرية هو اعادة لمشهد مسيرة السيد المسيح نحو الصلب في فيلم ميل غيبسون «آلام السيد المسيح». والنبرة الدينية في الفيلم جعلت مسؤولي الحملة الدعائية قادرين على بناء حملتين الاولى موجهة نحو المشاهد العادي غير الديني او قل العلماني اما الثانية فهي دينية الطابع، خاصة ان كتاب نارنيا هو من الاعمال المقررة في بعض الكنائس الامريكية، لا سيما نوادي القراءة فيها، وبحسب مجلة «ناشونال ريفيو» فنارنيا هي «مواصلة لمدارس الاحد ولكن بطريقة اخرى». وترى مواقع دينية مسيحية ان سلسلة نارنيا يمكن قراءتها على انها حكايات واقاصيص دينية. فالسلسلة الاولى من نارنيا «ابن عم الساحر» تصف العالم كمكان للشرور، اما «الامير كاسبيان» فهي تلخص الطريقة التي يتم فيها افساد واصلاح الدين، و«في رحلة مسافر الفجر»، هنا الحديث عن التطهر والتعميد، اما «الولد وحصانه» فهي عن عملية التبشير بين الوثنيين وتحويلهم الى المسيحية، في «الكرسي الذهبي» حديث عن الهبوط الى قاع جهنم، وفي «المعركة الأخيرة» حديث عن ظهور الدجال والقيامة. ديزني، حتى قبل عرض الفيلم قامت باستهداف مرتادي الكنائس من خلال ما اسمته الترفيه المدفوع، وقامت بدعم عدد من اللقاءات في 140 كنيسة، كما ان السياسيين المحافظين قفزوا للعربة حيث اختار حاكم فلوريدا، جيب بوش، شقيق الرئيس الامريكي الرواية لتكون الكتاب موضوع برنامج القراءة العامة في كل الولاية. كل هذا مع ان لويس الاكاديمي، والكاتب الملتزم مسيحيا رفض الربط بين عالم القصة الخيالي واي مجاز له عن الواقع. ومع انه لا توجد اية مقاربة بين الشخصيات الخيالية للرواية ومثيل لها في الواقع الا ان لويس كان يرى ان روايته قد تشكل «المحفز» لايقاظ الدوافع الدينية في الاطفال. نارنيا، الفيلم ايقظت معها اهتماما جديدا بحياة وايمان سي اس لويس الذي ولد عام 1898 في مدينة بلفاست في ايرلندا الشمالية، ومثل كل ابناء جيله تلقى تربية دينية ترى في الايمان ومراقبة واجباته التزاما وواجبا، ولكن لويس في عمر الرابعة عشرة فقد اي اهتمام بالدين مع انه يذكر في مذكراته «مفاجأة جوي» (اشارة اخرى لاسم زوجة الكاتب الثانية الامريكية جوي دافيدمان/ غريشام) انه مر بمرحلة تدين سريعة بعد وفاة والدته عام 1908. تحدث لويس بقسوة عن والده الذي وصفه اكثر من مرة بالبسيط، فقد كتب عن والده المحامي قائلا «كان يتحدث بقسوة وتصرفاته ظالمة» ولم تعد العلاقات بينهما الى مجاريها الا بعد سنين طويلة وبعد ان اصبح لويس محاضرا ومشرفا اكاديميا في جامعة اوكسفورد، وكان للعلاقة المتوترة مع والده اثر في وثوق العلاقة بين كلايف وشقيقه وارين حيث يتذكر عندما ارسلا لمدرسة داخلية عانيا فيها الكثير من المصاعب والمشاكل وفيها عادت للويس مشاكله المرضية التي رافقته عندما كان صغيرا، ونظرا للفصول العقابية التي كان يعقدها مدير المدرسة فقد قدمته عائلة للمحكمة، وكان الاطفال الذين يرسلون الى هذه المدرسة المتداعية والتي تشبه معسكر الاشغال الشاقة يكتبون في كل المرات لابائهم يرجونهم بانقاذهم من هذه المدرسة ـ السجن. وبحسب السيرة الذاتية التي صدرت حديثا بعنوان «سي اس لويس: الولد الذي سجل نارنيا» فلويس وجد عزاءه بفقدان الام من خلال الفانتازيا والاقبال على قراءة كتب الحكايات الخيالية، قصص الحب والجنيات والمغامرات، وفي سن الخامسة عشرة اطلع على كتاب «السهم الذهبي» لفريزر الذي يتحدث عن الاسطورة، ومن خلاله بدأ ينظر للمسيحية باعتبارها اسطورة شرقية عن موت وانبعاث الرب. وخلال دراسته في اوكسفورد، اولا كطالب وثانيا كمدرس ومحاضر في كلية ماغدلين التابعة للجامعة كان يعتبر نفسه شاكا في الدين. ولم يعد للاهتمامات الدينية الا في الثلاثينات من القرن الماضي بعد حوار من الحوارات التي كان يجريها مع صديقه الكاتب الاخر جي ار ار تولكين كاتب «سيد الخواتم» التي تسيدت افلام الفانتازيا في العام الماضي وقبله، وكان يلقى تولكين اسبوعيا في حانة من الحانات تجمعهما مع عدد اخر من اساتذة اوكسفورد.

وما جمع لويس مع تولكين الكثير ـ فكلاهما فقد امه في الصغر، مع ان تولكين المولود في جنوب افريقيا لم يعرف اباه ابدا، وتلقى تعليما احسن من تعليم لويس في المدارس الداخلية، الا انهما يشتركان في الاهتمامات الادبية واللغات القديمة مثل الايسلندية والفنلندية وكذلك اللغات الانغلو ـ سكسونية، اما لويس فكان مأخوذا بالاساطير النورسية او الفايكنج، ومن ضمن الشلة الادبية التي كانت تلتقي في المسارح او بعد الفطور الذي كان يقدم في الجامعة صباحا هوجو دايسون حيث كانوا بعد الفطور يتمشون قليلا في ساحات اكسفورد قبل ان يذهبوا الى مكاتبهم ويبدأون اعمالهم الاكاديمية، التدريس والاشراف. حياة لويس الخاصة في اوكسفورد ملغزة فقد عاش مع سيدة تكبره باكثر من عشرين عاما، حيث التقاها بعد وفاة ابنها في الحرب العالمية الثانية، واسمها جاني مور وعاش معها في بيتها، وظلت العلاقة بينهما سرية، فقد رفض لويس مناقشة طبيعتها الا انه كان يوزع وقته بين مكتبه في جامعة اوكسفورد التي عين فيها اولا كمحاضر براتب قليل 200 جنيه في ذلك الوقت مما يعني انه كان دائما عرضة للمشاكل المالية، وبعد فترة عين محاضرا كاملا براتب وصل الى 500 جنيه مما يعني تحرره من عبء الاعتماد على مساعدات والده المالية التي لم تنقطع خلال فترة دراسته وتدريسه المبكر في الجامعة. ويقترح عدد من كتاب سيرة سي اس لويس علاقة جنسية شاذة تمت بينه وبين جاني مور، بل ان ميكائيل وايت يقترح في السيرة الاخيرة ان لويس في مرحلة نضجه الاول مر بوجه من الاحلام المتوحشة والشاذة والتي جاءت من خلال صداقته الطويلة مع ارثر غريفيس صديق طفولته في بلفاست والذي كان شاذا لا يخفي شذوذه ولكن وايت يقول ان اهتمام لويس بهذا الجانب الشاذ لم يتعد الخيالات ولم يترجم على الواقع. بقي لويس مع جاني مور التي تعرف عليها عندما كانت في الخامسة والاربعين وهجرها زوجها حتى وفاتها، وتحمل بعض اعباء الانفاق عليها وعلى ابنتها مورين، وعندما توفيت شعر بالوحدة والعزلة فقد كان في ذلك الوقت قد دخل مرحلة الخمسين والف الحياة الاكاديمية المملة خاصة في جامعة اوكسفورد العريقة. اما المرأة الثانية التي لعبت دورا مهما في حياة لويس فقد كانت الامريكية جوي دافيدمان، التي ماتت بالسرطان، جوي دافيدمان او غريشام، كما يشير اليها وايت في سيرته الاخيرة عن لويس امريكية، بدأت بمراسلة لويس في عام 1950 وحضرت لإنكلترا عام 1952 لمقابلته. كانت امرأة صغيرة الحجم، سمراء، صريحة، وكانت ترى في لويس اعظم كاتب في عصره، وتعرفت عليه بعد ان اكد الكاتب حضوره الادبي والذي جاء متأخرا نوعا ما، وتحولت للمسيحية مع انها كانت يهودية غير ملتزمة بالدين. كانت جوي مفاجأة لكل اصدقائه ومثارا للجدل، وموضوعا للعديد من الكتب والمقالات وفيلم سينمائي ادى دور البطولة فيه انتوني هوبكنز ودبرا وينغر (ارض الظلال)، وقد تزوجت جوي لويس وهي في ايامها الاخيرة، حيث بارك القس الزواج ودعا لها بالشفاء. ومع ذلك كان الكثير من اصدقائه الانكليز، الذين لم يألفوا بعد التصرفات الامريكية يرون فيها امرأة غير مؤدبة فيما اعتبرها اخرون مخلصة، ومحبة للويس، ولا يختلف مؤيدوها ومعارضوها بشأن الاثر الذي تركته على الكاتب. ولكن نقاد ومؤرخي سيرة لويس كثيرا ما طرحوا اسئلة حول طبيعة علاقاته مع المرأتين جاني وجوي، ويجد العديد منهم نوعا من التفسير في تعليقات والده البرت الذي قال ان ابنه «طيب جدا، يقع في حبال اي صيد يلقى في طريقه». وقراء لويس الصغار لم يلاحظوا اي بعد ديني او مسيحي فيها، ولكن عندما يكبرون كانوا يكتشفون البعد الديني فيها. فمن الكتب التي حللتها اليسون لوري في مجلة «نيويورك ريفيو اوف بوكس» «عودة لنارنيا» الذي شاركت فيه نخبة من الكتاب المتعددي الهويات، ملحدين، مسيحيين، من اتباع الديانات الجديدة، ما بعد حداثيين وهواة، وكلهم امتدحوا وانتقدوا لويس في نفس المقام. وكان فيليب بولمان، الكاتب البريطاني، وأحد الكتاب المشهورين في عالم الفنتازيا، قد هاجم راوية لويس في مقال طويل نشرته له صحيفة «ديلي تلغراف» العام الماضي، واعتبر «نارنيا» بمثابة عمل دعائي ديني، وقال عنها انها مليئة بالسموم والقبح. فيما انتقد اخرون الطريقة التي صور فيها «اصلان» الاسد (كلمة تركية تعني الاسد)، وقالوا ان صورته في الرواية والفيلم التي تشبه صورة «الملك الاسد» في الفيلم المشهور تعبر عن «مسيحية ذات عضلات»، فالسيد المسيح، يبدو في تمثيل الاسد قويا ورياضيا، بل انه يقوم بدور الرب الذي يخلق العالم ويدمره في المعركة الاخيرة ويبعثه من جديد، كما يرى نقاد اخرون، فأصلان في الرواية يقول انه «ابن امبراطور البحار» كما اشار اخرون الى ان الابطال في روايات الصغار عادة ما يكونون صغيري الاحجام، فئران، قطط وارانب وليس اسودا. البعد الديني هو جانب اخر، من النقد الموجه للويس، والعنصرية هي جانب اخر، يطبعه، فلويس الذي لم يخف تأثره باحد كتاب الاستعمار سير هنري رايدر هاغرد المعروف برواياته الاستعمارية كان معجبا بكل شيء يمت الى «الشمال» اما الجنوب في راويته فهو محل التخلف، العبودية، والوثنية، يعيش فيه سكان يتنقلون في الصحراء ويعتمرون العمائم، فشعب «كالورمينس» «التي تعني باللاتينية السود او الملونين» يعيشون على الجانب الاخر من مملكة نارنيا، وهم سكان عدوانيون بالطبيعة، ويكرهون الحيوانات، خونة، تسود في مجتمعاتهم العبودية والرق، ويمارسون عادة فداء البشر، اي قتلهم وهي الصورة التي نشأت في داخل الفكر الاستعماري عن الاخر المتوحش والبدائي، والتي فكك رؤيتها بنجاح الناقد الفلسطيني ـ الامريكي ادوارد سعيد. وكما ترى لوري، فالاسد، الذي يرمز الى القوة والسوبرمان، يحمل في طياته بعدا سياسيا، عن الامبراطورية البريطانية، فقد كان الاسد هو شعار العلم البريطاني، ومن هنا فنارنيا قد تكون مجازا عن صعود وسقوط الامبراطورية البريطانية، والجنوب المعادي للتنور الاوروبي هو العالم الاسلامي، ولهذا فادموند الذي خان رفاقه/ اخوته كان يخون قيمه الدينية من اجل «الحلوى التركية»، «راحة الحلقوم»، في اشارة للدولة العثمانية التي لم تحظ بصور ايجابية في ادبيات القرون الوسطى وما بعدها الغربية.

في جانب اخر، اشار اخرون الى ان لويس لم يكن ايجابيا في تصويره للبطلة الانثى في عمله هذا، فالفتاة او الملكة تأتي في الدور الثاني دائما بعد دور البطل، وقد يكون لويس معذورا لانه عاش بين الكتب وفي عالم ذكوري، عالم معزول عن العالم في ابراجه العاجية. وكما يشير وايت، فلويس لم يكن يهتم بالسياسة وهو حال زملائه ايضا، ولم يكن اهتمامهم بالاخبار وشؤون الساعة يتعدى النظر سريعا لجريدة «التايمز» التي كانت تتوفر في قاعة الطعام واثناء تناول الفطور. اما غير ذلك، فكان لويس مشغولا بالنقاشات الاكاديمية الجامدة التي لا علاقة لها بالعالم الواقعي. ان عزلة، لويس عن العالم لم تبدأ في اوكسفورد بل عندما اختار عالم الكتب، كبديل او هروب من العالم الواقعي، وهذا سببه الصدمة التي تركتها وفاة والدته عليه. ومن هنا يربط وايت بين تحول واهتمام لويس بالعالم الفنتازي الذي قرأه واقبل على قراءته في مصادره الاولية وبين عام 1908، وهو عام وفاة والدته بالسرطان.

بعد ظهور فيلم «نارنيا» صدرت عدة كتب تحاول البحث عن البعد الفكري والايديولوجي في الرواية التي لم تعجب صديق لويس تولكين، الذي قضى عقودا ثلاثة وهو يرسم عالم «سيد الخواتم» حيث حد جغرافيته وسكانه ولغاته العديدة معتمدا على اهتماماته اللغوية التي اشرنا اليها سابقا، ولكن القراء خيبوا امل تولكين واعجبوا كثيرا برواية لويس التي وصفها بانها تجميع مشاهد، وعمل قليل الاهمية، لا يقاس بالاعمال الاكاديمية الاخرى التي كتبها لويس مثل «مجاز الحب» وهي الدراسة التي حلل فيها مفهوم الحب في الاعمال الادبية الوسيطية حتى القرن السادس عشر، اضافة لعمله الاخر «مسيحية ليس الا».

نقاد تولكين، يرون انه اعاد خلق عالم وسيطي بكل صوره ورموزه، اما لويس في نارنيا، ففي الاطار العام، الزمان والمكان والمفاهيم وسيطية ولكنها نهائية، وليست محكومة بالمكان كما في حالة تولكين.

ولكن سلسلة نارنيا، لها محدداتها خاصة على القراء الاطفال، اذ انها تضع المرجعية دائما في الامل، والخلاص في يد الكبار، فالصغار لا يتحررون من سطوة الكبار، واصلان، الاسد يظل بمثابة البطل القدري الذي بيده الخلاص، وهو هنا في حضوره الجسدي وغيابه يمثل السطوة على الابطال، وهي هنا تدعو القراء الى الاذعان لسطوة اصلان، وعندما يعود الاطفال من رحلتهم الخيالية الى العالم الحقيقي، لا يحملون من العالم الاخر، الا سطوة اصلان الذي سيعيش معهم. وهذا بعد ديني واضح، فالمؤمنون المسيحيون يقبلون على قراءة اعمال لويس لانها تعلم الاطفال على الاذعان لسلطة الدين، او السلطة الابوية التي يمثلها اصلان.

بدأ لويس بكتابة سلسلة كتب نارنيا في عام 1948 وبدأت تظهر تباعا في الفترة ما بين عام 1950 ـ 1956، ويرى وايت ان لويس اعتمد كثيرا في السلسلة على مصادره من الاولى، اي تجربته الذاتية وطفولته، وعلى الرغم من ان النقاد اشاروا الى الكثير من العيوب في كتابة لويس، عدم التناسق والانسجام، التشوش، اللغة الغامضة والمملة في الكثير من سطور الرواية الا انها كمجموعة استطاعت تأكيد حضورها لدى القارئ العام بعد تعثر بسيط. وكما اشار لويس نفسه، فكل كتاب بدأ اولا بمحاولة كتابة «قصة جيدة» وبعدها كان يحضر العامل الديني او المسيحي. لويس كتب الاعمال هذه، وعلاقاته بالاطفال محدودة، وقد اقامها كما قلنا على ذكرياته الاولى وقراءته ومع انجازه هذه السلسلة كان قد كتب اكثر من عشرة اعمال هي مساهمته الاكاديمية في مجال الادب. ومعها استطاع حجز مكانه في تاريخ الادب الانكليزي، كل هذا مع انه تأخر في تأكيد شخصيته الادبية ومحاولاته الشعرية الاولى لم تكن بمستوى ادت لاحتفال النقاد بها. ولكن لويس الذي بدأ استاذا مملا، وقاسيا على طلابه، الذين اراد هم صورة عن انجازه الاكاديمي، استسلم اخيرا للواقع وقبلهم على علاتهم، هو نفسه الكاتب الذي بدأ كاتب مقالات يكتب في كل شيء قبل ان يحدد خطه الاكاديمي. تلخص عبارات وايت في مفتتح كتابه الطريق الذي ساره لويس والطريقة التي تعامل فيها مع الالم، والفقدان، والتعويض عنه بالفنتازيا حيث يقول ان ما شكل فتوة لويس مشتق من «احداث عام 1908 (وفاة والدته) فشخصيته صقلت بألم الفقد، التي تبعها المعاناة وحيدا، وكبت المشاعر، والحياة المثيرة للخوف في بيته في «ليتل ليو» (بلفاست)». وقد ادى كل هذا الى ان يخفي لويس الكثير من احلامه ومشاعره وعواطفه مع انه اصبح متحدثا جيدا وطبيعيا امام الطلاب وفي المناسبات العامة. وترك لقلمه فيما بعد القيام بالبوح بكل ما هو حزين ومثير في رواياته التي حملت طابع التبشير الديني او ما اسماه «الراوية الاخلاقية». توفي لويس في عام 1963.

---

* ناقد من اسرة «القدس العربي»

** اعتمدت هذه القراءة على فيلم «The Chronicles of Narnia: The Lion,The Witch and the Wardrobe» من اخراج اندرو ادامسون. وعلى المقال الذي كتبته اليسون لوري في شهرية «New York Review of Books»، جزء/53، عدد 2، شباط (فبراير) 2006، والسيرة الذاتية الجديدة عن سي اس لويس بعنوان C.S.Lewis: The Boy Who Chronicled NARNIA: A Biography. bY: Michael White, ABACUS, London, 2005"

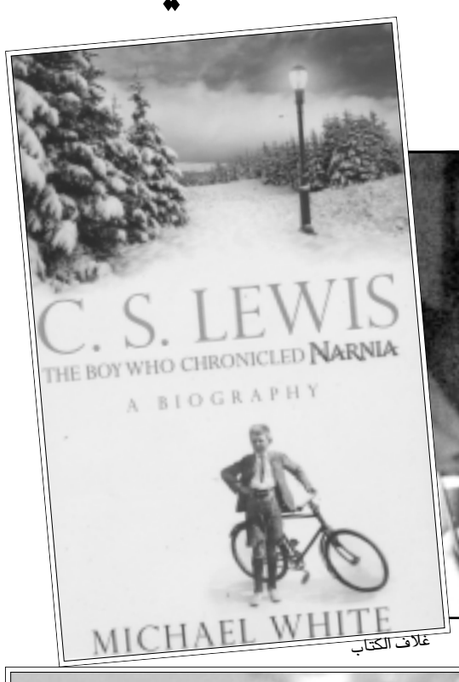

غلاف الكتاب

سي اس لويس

لقطة من فيلم «نارنيا، الاسد، الساحرة والخزانة»

«فقه التسامح في الفكر العربي والاسلامي: الثقافة والدولة» لعبد الحسين شعبان:

محاولة للتذكير بتراث التسامح الغائب عربيا

غصون رحال*

■ يرمي المؤلّف الدكتور عبد الحسين شعبان في هذا الكتاب الى تتبع آثار الانحراف الذي طرأ على مسار «فقه التسامح» وجنح به الى نهج قائم على الجهل والتعصب والتحيز وإقصاء الآخر، وذلك لأجل ان يعود به ثانية الى سياقه المتأصل في الجذور التاريخية والفلسفية. ويحتكم الدكتور شعبان في تتبّع هذا الانحراف الى: الراهن والتاريخي في مسألة التسامح، الأديان والفكر الإسلامي والسيرة المحمدية، كما الى الفقه الدولي المعاصر. ولعل ما يميز هذا الكتاب، هو استعراضه لفكر التسامح في مواثيق الأمم المتحدة وتأكيده على ان مفهوم التسامح ليس مبدأ تاريخيا مستمدا مما هو ديني وتاريخي فحسب، بل هو نتاج فكر أممي جماعي معاصر أيضا.

وكما الديمقراطية بحاجة الى اشتراطات مسبقة لتحقيقها من قبيل: حق الانتخاب، وحرية الرأي، والتعبير والبيئة التشريعية المنفتحة على احترام حقوق الانسان، فإن الكاتب يرى ان نشر ثقافة التسامح تحتاج أيضا الى مثل هذه الاشتراطات المسبقة، ويحددها على سبيل المثال لا الحصر بضرورة توفير جو من الانفتاح، وبيئة مناسبة تتّسم بفضاء الحرية وحقّ التعبير وحقّ الاختلاف دون خوف من العقاب، ومجتمع مدني يكون شريكاً فاعلاً مع الدولة التي لا بدّ لها أن تعمل وفقًا لسيادة القانون والمساواة بين المواطنين، من دون تمييز بسبب الجنس أو الدين أو القومية أو الخلفية الاجتماعية أو الاتجاه السياسي أو أيّ سبب آخر. (ص 37).

ويخلص الكاتب الى أن المشكلة ليست في الماضي بقدر ما هي مشكلة الحاضر، فالعديد من الإسلاميين يقيمون في الماضي وليس لديهم اي رغبة في الخروج منه والتطلع الى ما يواجه الحاضر من قضايا ملحة وراهنة. ويقترح لأجل الخروج من هذا المأزق عدداً من الحلول تتمثل في الاعتراف بنسبية المعرفة وعدم امتلاك الحقيقة، والإيمان بالحقوق والحرية والكرامة للجميع، والإقرار بحق الاختلاف، وتبنّي الفكر النقدي، واعتماد مناهج تعليمية كفيلة بتحقيق هذه الخطوات (ص 165 ـ 168). فالمطلوب تعليم نقدي خلاّق، ذو «علاقة بالعصر والعلوم»، بعيداً عن «التلقين وحفظ التنزيل الحكيم عن ظهر قلب والاهتمام ببعض الشكليات» (ص 21 ـ 22). ولئن كان شيءٌ من إصلاح التربية شرطاً لإصلاح الدولة، فإن صلاح التربية لا يكتمل إلا بصلاح الدولة.

ورغم حرص الكاتب على شمولية المعالجة، وتعدد مرجعياته الدينية والفكرية والفلسفية من ناحية، ورغم إثارته لإشكاليات التسامح ووضعها موضع تساؤل واستفهام من ناحية أخرى، الا ان هناك بعض الملاحظات التي لا بد من إثارتها:

اولا: كان من الضروري توضيح مفهوم التسامح في الفصل التمهيدي من حيث:

1– التعريف ونطاق التطبيق عوضا عن تشتيت التعريفات ونطاق التطبيق على فصول الكتاب، كما في الصفحات (ص: 18 ومن 58 الى 62 – ومن 88 الى 90).

2– التأكيد على مبدأ افتراضي هام هو «تبادلية فكر التسامح» بين جميع الأمم كشرط أساسي لتعميم ونشر ثقافة التسامح في هذا العالم، وعدم جدوى قصره على فئة معينة او فكر محدد دون آخر.

3– وضع الخطوط الفاصلة بين ما هو من قبيل التسامح وما هو من قبيل الخضوع والضعف، وشرح اشكالية التفريق بين التسامح وبين الحق في تقرير المصير، او النضال والمقاومة، منذ البداية حسما لأي إشكالية قد يثيرها القارئ لاحقا.

ثانيا: أصّل الكاتب لمفهوم «اللاعنف» في كل من الدين المسيحي والاسلامي، واستشهد بالعديد من أقوال السيد المسيح والآيات القرآنية التي تدعو الى صحة الاختلاف وحرية التفكير، وتقبل واحترام الآخر بغض النظر عن خلفية هذا الآخر العقائدية والفكرية والعرقية. ورغم انه ليس بالمستطاع التشكيك في رسالة الأديان السماوية السمحة، وما تدعو اليه من القيم المثلى، الا ان النصوص الدينية، وكما تحمل في ثناياها من بذور التعايش السلمي بين الشعوب، تحمل أيضا بذورا من عدم التسامح. وهو ما تحدث عنه الكاتب في الفصل الخامس حيث أشار الى ان النصوص الداعية الى التسامح في القرآن تبعتها نصوص أخرى تدعو الى عدم التسامح وهي، وفقا للكاتب، «آيات السيف» (ص 151) او النصوص الناسخة التي تلغي ما قبلها مثل: (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم..) و (أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم).

صحيح ان الكاتب تناول الآية بحرص واوصى بألا تفسر بمعزل عن سياقها التاريخي الذي نزلت من أجله وهو نكث اليهود لعهودهم مع المسلمين، الا ان القراءة التفسيرية لهذه الآيات من قبل بعض المجتهدين انتجت كل هذا الكم من فتاوي التكفير، وكمّ أكبر من فكر الجهاد المنفلت عن ضوابطه الشرعية. باختصار، بقيت هذه النصوص في متن القرآن الكريم، لكن السياق التاريخي الذي اتت من أجل تنظيمه اختفى، مما دفع بالعديد من المسلمين الى الإيمان بها على إطلاقها دون الالتفات الى سياقها التاريخي الذي تلاشى على مر السنين. وينطبق هذا التحليل على الكثير من المسلمات الأخرى التي يحظر طرحها ابتداء مثل حرية العقيدة وارتباطها بمفوم الردة، حرمة زواج المرأة المسلمة من غير المسلم، أهل الذمة في الدولة الاسلامية ومبدأ المواطنة الكاملة!.

وكذلك الأمر بالنسبة للديانة المسيحية التي اوجدت ما يسمى «الكهنوت» او رجال الدين الذين يقعون في مرتبة وسطى ما بين الناس العاديين والخالق. وبمرور الزمن، تنامى دور هؤلاء فأوجدوا صكوك الغفران، ومحاكم التفتيش، وما يسمى بالحرب باسم الصليب او «الحرب العادلة». وحسنا فعل الدكتور شعبان بعدم تعرضه للديانة اليهودية التي تزخر أسفارها بصنوف القتل والدمار بحق الشعوب غير اليهودية «الغوييم»، منها على سبيل المثال: «ومن يسفك دم غير يهودي كأنما يقدم قربانا للرب» و«اليهود بشر لهم انسانيتهم، اما الشعوب الأخرى فهي عبارة عن حيوانات» و«وبيوت غير اليهود حظائر بهائم نجسة لأنهم جميعا كلاب وخنازير».

ثالثا: تعرّض الكاتب في الفصل الثاني الى التسامح في الفقه الدولي المعاصر، واستشهد بميثاق الأمم المتحدة ودستور اليونسكو. كما أشار الى سلطة خامسة هي سلطة حقوق الانسان واستند الى معايير «فريدريكو ماريو» وغيره من دعاة مبدأ التدخل الانساني، ولكن بشرط ضمان عدم انتقائية او ازدواجية التنفيذ انما بتطبيقات سليمة تنسجم مع الميثاق الدولي وقواعد القانون الدولي الانساني (ص:67).

وكما في النصوص الدينية، فإن الأمر ذاته ينطبق على ميثاق الامم المتحدة الذي يحمل بين طياته أسباب فشله وعجزه عن تحقيق العدالة ما بين الأمم. فالميثاق يتضمن نصوصا اشكالية قائمة على التمييز والكيل بمكيال الدول القوية صانعة هذا الميثاق. وربما يجدر التذكير بانه وفي ظل الميثاق الحالي الذي لا تتساوى فيه أصوات الدول، والذي تتفوق من خلاله الدول القوية –حاملة حق الفيتو – وتعطى فيه اليد العليا فوق سائر الدول، لن يكون هناك تسامح او عدالة في التطبيق. هذا بالاضافة الى ما تقوم به الدول العظمى من جهود جبارة للوقوف في وجه المحاولات المطوحة حاليا لتعديل او إصلاح ميثاق الأمم المتحدة على نحو يهدف الى إعادة التوازن ما بين الدول أطراف هذا الميثاق.

رابعا: ثم اذا كانت الأديان بدأت نقية متسامحة وعادلة كيف ومتى ولماذا انحرف اتباع هذه الأديان عن تعاليمها السمحة ؟ وإذا كان فلاسفة عصر التنوير توصلوا بحكم التفكير المنطقي والعقلاني الى حتمية التسامح كسبب رئيسي لاستمرار البشرية، فلماذا حصلت الردة على هذا النهج العقلاني؟

هناك باعتقادي فصل آخر ينقص الكتاب، ربما لاستعراض الأسباب التي أدت الى استخدام الأديان كوسيلة لتحقيق مصالح سياسية او اقتصادية او اجتماعية او حتى ثقافية. او لتتبع المفاصل التاريخية، التي أدت الى القضاء على طموحات نخبة من المثقفين المستنيرين ورجال الفكر في صنع عصر تنوير عربي جديد، ومحاولاتهم التي دعت إلى سيادة روح التسامح والانفتاح على الفكر العالمي، من خلال إعادة صياغة الموروث العربي والإسلامي بما ينسجم مع متطلبات النهضة. ثم ما اعترض مشروع الاستقلال جراء تنفيذ اتفاقية «سايكس بيكو» ووعد «بلفور»، وزرع اسرائيل في قلب الأمة العربية بمساعدة الدول العظمى. وأخيرا، ما لحق بالحكومات والأحزاب العربية من فساد وتشوهات تجلت في استثمارها للنزاع العربي الاسرائيلي في فرض الأحكام العرفية وتعطيل الحياة النيابية والتقييد على الحريات وغيرها من ممارسات الأنظمة الشموليه، مما دفع بفئة من المنتفعين الى التدثر بعباءة الاسلام لغايات تحقيق أهداف سياسية خاصة أدت الى تعميم الحكم على المسلمين جميعا بوصفهم ارهابيين.

ختاما، يعد كتاب عبد الحسين شعبان «فقه التسامح في الفكر العربي الإسلامي» الصادر عن دار النهار – بيروت 2005، عملاً تذكيريا بكل ما ورد في المصادر الدينية والفكرية السابقة، ومحاولة متجددة لإعادة العمل بما جاء في هذه المصادر من فكر جدير بالاستذكار والتطبيق على نحو سواء في زمن عزّ به التسامح.

---

* كاتبة من الاردن

«عصفورة الأمير»: قصة عاطفية من طي النسيان للأذكياء من الفتيات والفتيان!

غلاف الكتاب

بيروت ـ «القدس العربي»:

أصدرت «مكتبة لبنان ناشرون» في بيروت كتاباً جديداً للدكتور علي القاسمي، الباحث الكاتب العراقي المقيم في المغرب، بعنوان «عصفورة الأمير: قصة عاطفية من طي النسيان، للأذكياء من الفتيات والفتيان». تقع القصة في 65 صفحة مطبوعة على ورق صقيل، وتشتمل كل صفحة على صورة ملونة من رسم الفنان اللبناني المعروف سليم صوايا. والصور مستوحاة من البيئة المغربية بأزيائها التقليدية، وعمارتها الإسلامية، وطبيعتها الخلابة. وفي آخر الكتاب مجموعة من الأسئلة عن موضوعات القصة ومراميها.

تدور القصة حول أمير صغير يعيش في قصر والده السلطان. ولكنه يكثر الخروج متنكراً بملابس شعبية للاطلاع على أحوال المواطنين والتعرف على مشكلاتهم المعيشية. ويلتقي أثناء زيارته لإحدى القرى براعية صغيرة فيعجب بوجهها المشرق، وذكائها المتوقد، وأخلاقها الكريمة، فتنشأ بينهما مودة ومحبة. وتتخلل علاقتهما أحداث مفاجئة ووقائع مثيرة، دون أن تعرف الراعية هوية محبوبها الحقيقية.

يكتشف الأمير أن محبوبته لا تعرف القراءة والكتابة، وعندما تمرض لا تجد طبيباً في القرية يداويها. وعندها يدرك بألم أن القرى والأرياف محرومة من الخدمات التعليمية والصحية والطبية. فيعكف على وضع خطة لتحقيق التنمية الإنسانية في البلاد، من أجل رفع مستوى معيشة الناس، وترقية نوعية حياتهم؛ وهذا بدوره يزيد من إنتاجيتهم ويضاعف مردوديتهم، فيعم الرخاء.

وحينما يكبر الأمير، يشير عليه والده السلطان، ذات ليلة، بالزواج من الفتاة التي يختارها. وعلى الرغم من حبّ الأمير الشديد للراعية، فإنه يتردد في اختيارها، لأنه يخشى أن يحرمها القصر من حريتها التي تتمتع بها في فضاء المرعى الطلق، ويتذكر العصفورة التي أطلقها من قفصها في طفولته. «ولهذا يؤجل اتخاذ القرار حتى الصباح، لعل نور الشمس يبدد ظلمة المشكلة، ويرفده بشعاع جديد يعينه على اتخاذ القرار، أو لعل فتاة ذكية أو فتى نابهاً ممن سمعوا بقصته أو قرأوا عنها، يقترح عليه الحل المقبول». وهكذا تبقى نهاية القصة مفتوحة لإتاحة الفرصة للفتيات والفتيان للمشاركة في التأمل والإبداع.

استخدم المؤلف في قصته تقنيات سردية مشوقة متنوعة، مثل الأحلام، وكتابة الرسائل العاطفية، وتدوين المذكرات الشخصية، والحوار. واستعمل أساليب تربوية لتقديم مجموعة من المفاهيم والقيم، وتطوير حصيلة القارئ اللغوية من خلال تزويده بمفردات وتراكيب جديدة في سياقات تساعده على فهمها.

وجاء في كلمة الناشر على الغلاف الأخير: «في هذه القصة العاطفية الرائعة ذات الأحداث المثيرة المشوّقة، يستثمر الدكتور علي القاسمي خياله الخصب، وأسلوبه الساحر، وثقافته الموسوعية، في تكثيف سردي أخّاذ، لمناقشة عدد من قضايا حضارتنا الأصيلة مثل: الإنسان، والحب، الجمال، الحلُم، الحرية، العدل، التسامح، التنمية، الأمّة، السلطة... بحيث يلتهم القارئ هذه المفاهيم الكبرى بشغف، ويستوعبها دون يدري. ولهذا فإن قصة «عصفورة الأمير» تصلح للصغار والكبار، في أوقات الفراغ وفي الحصص المقررة في المدارس..».

ومن الأسئلة التي وردت في آخر القصة ما يلي:

ـ لماذا يحلّم الإنسان؟ ما هو تفسير الحلُم؟ هل قرأت كتباً عن تفسير الأحلام؟ ما الفرق بين الحلُم والكابوس؟ وما الفرق بين أحلام اليقظة وأحلام المنام؟ هل هنالك حدود واضحة بين الحلُم وال